

مقدمة

بلغ العالم الإسلامي في القرون الأربعة الأولى شأواً بعيداً في الخلق والعلم والحضارة ، حتى كاد يكون سيد العالم في هذا كله ، فخلقه في حربه وسله قوى متين ، وعلمه قد استوعب ما عند الأمم الأخرى من هند وفرنس ويونان وروم ، وهضمه كله ، ومزجه مزجاً جميلاً ، وبني عليه ، وابتكر فيه ، وحضارته كانت خير الحضارات ، تزدهر مدنه كبغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة بشقى ألوان الحضارة ، من علم وفن وعمارة وتجارة وصناعة ، حتى كان يُرحل إليها جميعاً للأخذ عنها والاقْتباس منها ؛ هذا إلى حرية في العقيدة وحرية في القول والعمل ، وهي حرية قلما كان يتمتع بها غيرهم من الأمم ، وكان ينعم بها كل من استظل بظلمهم من نصارى ويهود ومجوس . على حين كان يشقى في الشعوب الأخرى كل من خالف دينها واعتقد غير عقيدتها .

ثم بدأت فيه عوامل الضعف بعد ذلك ، وتوالت عليه الكوارث ، وتتابت عليه الخطوب ، وكلما مرّ عليه زمن زاد ضعفه وبدا هُزاله . وكان أول ذلك مادهم من قبائل الترك الرحالة ، وكانوا إذ ذاك معروفين بالغلظة والجفوة ، لا يحسنون إلا القتال من غير رحمة ، واقتك من غير روية ، لا علم ولا حضارة ولا معرفة بأساليب الحكم وقوانين السياسة . ومكّن لهم الخلفاء لحاجتهم إليهم ، حتى كانوا السيد المطاع والحاكم المستبد . وسرعان ما دخلوا في الإسلام ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، فلم يواخوا المسلمين بل استعبدوهم ، ولم يرحمهم ، بل نكلوا بهم ، ولم يؤسسوا علماً ولا حضارة ، بل قضوا على العلم والحضارة .

وجاءت الحروب الصليبية فاكتمت آسية الصغرى واستولت على نيت

القدس ، وجنّدت أوربة الجيوش تلو الجيوش لهذا الغزو ، وتتابعت البعثات قروناً ، والعالم الإسلامي يبذل كل جهوده وقواه وموارده لدفع هذه النازلة ، حتى استنفدت ذكاه وماله ومهارته وكل مقدرة له .

وفي القرن السابع الهجريّ اكتسح المغول جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي ، وعلى رأسهم جنكيزخان هذا الجبار المتمرّد . ثم خلفاؤه من بعده مثل هولاكو ، ولم تكن غايتهم الفتح والاستعمار ، ولا الغنم والاستلاب فحسب ، بل كانت الفتك والتدمير أيضاً ، فخطموا بغداد وحضارتها وعلمها وفنها ، وكانت زينة العالم وبهجة الدنيا ، فذبحوا أهلها وخرّبوا عمرانها ، وأتلفوا جسورها وكل ما بها . وكانت نكبة بغداد نكبة العالم الإسلامي .

وفي أول القرن التاسع الهجريّ زحف تيمورلنك ، فمثل دور جنكيزخان وهولاكو ، فذبح ودمر وأتلف وخرّب ، ورمى العالم الإسلامي بكارثة عظيمة ، ولمّا يستفقّ مما غشّيه من النوازل قبلها .

ثم امتدت فتوح الأتراك العثمانيين ، فلم يكن حكم أكثرهم حكماً صالحاً ، ولم يسوسوا الأمم سياسة عادلة . كانوا شجعاناً مقاتلين ولم يكن أغلبهم ساسة عادلين . عنوا بالحرب أكثر مما عنوا بالإدارة ونظم الحكم ، ومهروا في الفتح أكثر مما مهروا في إقامة صرح العلم ومتابعة السير بالحضارة ، فزاد العالم الإسلامي تدهوراً على توالي الأزمان . ظلمة حالكة ومحنة شاملة وجهل مطبق وظلم فادح وفقير مدقع . هذا سائح فرنسيّ زار مصر في آخر القرن الثامن عشر — وهو مسيو فولني Volney وأقام بها وبالشام نحو أربع سنوات — يقول : « إن الجهل في هذه البلاد عام شامل ، مثلها في ذلك مثل سائر البلاد التركية ؛ يشمل الجهل كل طبقاتها ، ويتجلى في كل جوانبها الثقافية ، من أدب وعلم وفن ؛ والصناعات فيها في أبسط حالاتها ، حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد من يصلحها إلا أن يكون أجنبيّاً » .

وهذه الحكومة المصرية تراها تخشى تعليم الرياضة والطبيعة ، فستفتق شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمداً الإنباجي : « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالمهندسة والحساب والميثة والطبيعات وتركيب الأجزاء — المعبر عنها بالكيمياء — وغيرها من سائر المعارف ؟ » فيجيب الشيخ في حذر : « إن ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها » — كأن هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها ، ولم يكونوا من مخترعيها وذوى التفوق فيها .

كان العالم الإسلامي منعزلاً ، لا يتصل بأوربة إلا فيما تعانیه تركيا من مشاكلها السياسية ، فليس هناك بين الشعوب الإسلامية والشعوب الأوربية اتصال في الثقافة والعلم والصناعة ونظم الحكم ، يمهدها الاستفادة منها والأخذ عنها . لقد أغلقت على العالم الإسلامي الأبواب منذ الحروب الصليبية ، وأخذ يأكل بعضه بعضاً — وقف المسلمون في علمهم ، فليس إلا ترديد بعض الكتب الفقهية والنحوية والصرفية ونحوها ؛ وفي صناعتهم ، فلا اختراع ، ولا إتقان للقديم ؛ وفي آلاتهم وفنونهم العسكرية ، فهي على نمط الأقدمين . وسكان المدن والريف قد أبعدوا عن الاشتراك في الشؤون السياسية والحربية ، فلا ترام في جيش ولا في قيادة جيش ، ولا رأى لهم في الحكم ولا في السياسة ولا في الإدارة ، وإنما هم مزرعة الحكام ومستقلّ الولاة والأمراء ، كلما تفتحت شهواتهم فعلى الرعية أن يجدوا سبيلاً لملئها بالمال يجمعونه من كدّ يمينهم وعرق جبينهم . مركز الخلافة — وهو الأستانة — مفكك منحل ، والولايات من مصر والشام والعراق والحجاز متدهورة متضعفة ، قد أمات نفسها توالى الاستبداد عليها ؛ العلم فيها كتاب ديني شكلي يُقرأ ، أو جملة تعرب أو متن يحفظ ، أو شرح على متن ، أو حاشية على شرح . أما علوم الدنيا فلا شيء منها إلا حساب بسيط يُستعان به على معرفة المواريث ، أو قبس من فلّك قديم يُستدل به على أوقات الصلاة .

والسياسة فيها نزاع مستمر بين الأمراء ، وكل أمير له حزبه ، وكل حزب يتربص الدائرة بخصمه ، والبلاد ضائعة بينهم ، والوالى لا يطيل المكث إلا ريثما يفتنى ، حتى أصبح اسم الحكومة والوالى والجندى مرعباً مفرعاً مقروناً فى النفس بمعنى الظلم والفساد .

وأعجب من هذا كله إلفُ الشعوب الإسلامية هذه الحالة السيئة واستنانتها إليها ، وكراهيتها لكل إصلاح ؛ فإذا أريد إصلاح الجندية ثارت الانفكارية ؛ وإذا أريد إصلاح القضاء غضب العلماء .

وعلى الجملة فقد كان العالم الإسلامى - إذ ذاك - شيخاً هريماً حطمته الحوادث ، ونهكه ما أصابه من كوارث . فساد نظام ، واستبداد حكام ، وفوضى أحكام ، وخمود عام ، واستسلام للقضاء والقدر ، وترديد لقول الشاعر :

دع المقادير تجري فى أعنتها ولا تبتئن إلا خالى البال

فقد الدين روحه ، وصار شماتراً ظاهريه ، لآتمس القلب ولا تمحي الروح ، وسادت الخرافات ، وانتشرت الأوهام ، وأصبح التصوف أعباباً بهلوانية ، والدين مظاهر شكلية ، ووسيلة النجاح فى الحياة ليست الجد فى العمل ولكن التمسح بالقبور والتوسل بالأولياء ، فهم الذين يُنجحون فى العمل وهم الذين يَنصرون فى الحروب . والشوارع والحارات مملوءة بالدجالين والشعوذين :

هذا هو الحال فى الشرق ، أما الغرب فلم يكن قد أصيب بكوارث الشرق ، وقد بدأت أوربة تستيقظ منذ الحروب الصليبية وتنشئ لها حضارة جديدة ، مؤسسة على العلم والحربية ، وتتقدم فى الصناعة ، ويتدفق عليها المال من اكتشافها أمريكا وغيرها ، وتخترع وترتقى فى النظم الحربية على أساليب جديدة ، وتنشئ الأساطيل الضخمة ، حتى إذا شرعت بقوتها هجمت على الشرق بالآلته وأسلحتها واختراعاتها ، فتساقطت أقطاره فى يدها ، وكانت إذا دخلت قطراً ضغطت عليه بكل قوتها

واستغلته لمصلحتها ، وأجرت فيه الأمور على هواها ، فكان من جراء هذا الضغط أن أخذ وَعَىُ الشَّرقِ يَسْتَيْقِظُ ، وطموحه يتوثَّب . وكان من طبيعة هذا أن يتقدم الصنوفَ زعماء للإصلاح يشعرون بالآلام شعوبهم أكثر مما تشعر ، ويدركون الأخطار المحيطة بها أكثر مما تدرك ، ويفكرون التفكير العميق في أسباب الداء ووصف الدواء . وكل مصلح ينظر إلى المرض من زاويته ويدعو إلى مداواته على حسب خطته ، فكان من ذلك مصلحون مختلفون دعوا إلى الإصلاح في أقطارهم على حسب بيئتهم وثقافتهم ومزاجهم . وكلُّ قَدِ أُنْبِيَ بِلَاءٍ حَسَنًا ، ولاقى من العناء ما لا يتحمّله إلا أولو العزم ؛ فمنهم من شُرِّدَ ، ومنهم من قُتِلَ ، ومنهم من رُمِيَ بالخيانة العُظمَى ؛ فمن نادى بالمساواة في العدل بين الرعية من غير نظر إلى جنس أو دين اتهم بمحاربة المسلمين ، ومن نادى بتنظيم الجيش على الأساليب الحديثة اتهم بالفرنج والخروج على التقاليد ، ومن نادى بتأسيس مجلس شورى اتهم بمحاربة السلطان والحض على الثورة والعبث بالنظام ، ومن نادى بإصلاح العقيدة والرجوع بها إلى أصل الدين اتهم بالإلحاد ، وهكذا ؛ وهم على هذا صابرون مجاهدون ؛ أحبوا مبادئهم في الإصلاح أكثر مما أحبوا الحياة ، ولم يعبأوا بالعذاب يَحِقُّ بهم في سبيل تحقيق فكرتهم ، وظلت آراؤهم تعمل عملها في حياتهم و بعد موتهم ، حتى تحقّق إصلاحهم ونفدت أفكارهم ، وتقدّم الشرق على أيديهم خطوات تستحق الإعجاب .

وكان من حقهم علينا أن نُحْيِي سيرتهم ، ونجدد ذكركم ، ونبين مبادئهم ؛ فر بما جهل كثير من شباب الجيل الحاضر تاريخهم مع قرب العهد بهم ، وتأثرنا في حاضرنا ومستقبلنا بأرائهم وأعمالهم . والله الموفق ما